

المصطلح الصوتي، تصوره بين التراث والدرس الحديث:

The phonetic term, its perception between the heritage and the modern lesson:

أ.د. جمال كويحل djamelkouihal@yahoo.com kouihal djamel

جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2 . مخبر المقاربة التداولية و استراتيجيات الخطاب سطيف 2 .

المملخص (لا يتجاوز 10 أسطر	معلومات المقال
تتناول هذه الورقة البحثية الجدل القائم بين الباحثين اللغويين العرب القدامى والمحدثين في تحديد تصور هم اللغوي بين التراث العربي والدرس الحديث. مما أدى بهم هذا النقاش المتواصل إلى انشغال بالهم إلى يومنا هذا، فنتجت عنه مفاهيم ونظريات جديدة ومناهج توظيف مختلف هذه النظريات. و لعل من بين أهم المستويات التي كانت محور تفكير هم قديما وحديثا المستوى الصوتي من حيث تحليله خارج البنية وداخلها لأنه يمثل أول خطوة في أي دراسة لغوية باعتباره المادة الخام للكلام الإنساني، و لأن الكلام في أي لغة من لغات العالم عبارة عن أصوات تسير وفق نظام معين إذ من خلال العلاقة الموجودة بين الصوت والمعنى يمكننا أن نتوصل إلى فهم الدلالات المقصودة.	تاريخ الإرسال: 2022/12/03 تاريخ القبول: 2022/12/11
	المصطلح الصوتي ، التراث اللغوي، الدرس الحديث، اللسان، الكلام.

<i>Abstract : (not more than 10 Lines)</i>	<i>Article info</i>
<p><i>This article discusses the controversy between ancient and modern Arab linguists in determining their linguistic perception between the Arab heritage and the modern lesson. What led them to this discussion continues to preoccupy them to this day, resulting in new concepts and theories and methods of employing the various theories. Perhaps among the most important levels that have been at the center of their reflection, past and present, is the phonetic level in terms of analysis outside and inside the structure, because it represents the first step of any linguistic study because it is the raw material for human speech, and because speech in any language of the languages of the world is made up of sounds which proceed according to a specific system. Thanks to the relationship between sound and meaning, we can come to understand the intended connotation</i></p>	<p><i>Received</i></p> <p><i>Accepted</i></p>
	<p><i>Keyword</i></p> <p><i>Phonetic term, Linguistic heritage, modern lesson, tongue, speech.</i></p>

توطئة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وأفصح من نطق الضاد على أحسن وجه سيدنا محمد عليه وعلى آله أزكى التسليم إلى يوم الدين.

لقد تباينت آراء الباحثين اللغويين العرب القدامى والمحدثين، في تصورهم للغة العربية بجميع مستوياتها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، ويظهر ذلك من خلال الجدل القائم بينهما في تحديد هذا التصور بين التراث العربي والدرس الحديث، هذا النقاش المتواصل أدى بهم إلى انشغال بالهم إلى يومنا هذا، مما نتجت عنه مفاهيم ونظريات جديدة ومناهج توظيف مختلف هذه النظريات. ولعل من بين أهم المستويات التي كانت محور التفكير عند الباحثين اللغويين قديما وحديثا المستوى الصوتي من حيث تحليله خارج البنية وداخلها لأنه يمثل أول خطوة في أي دراسة لغوية باعتباره المادة الخام للكلام الإنساني ولأن الكلام في أي لغة من لغات العالم عبارة عن أصوات تسير وفق نظام معين إذ من خلال العلاقة الموجودة بين الصوت والمعنى يمكننا أن نتوصل إلى فهم الدلالات المقصودة.

اهتم العرب الأوائل بالدرس الصوتي منذ الوهلة الأولى ويظهر ذلك فيما فعله عديد الباحثين الصوتيين، فقد كان البحث الصوتي عند الخليل: (ت: 175هـ) مدخلا لتأسيس أول معجم عربي حسب الروايات، وعند سيبويه: (ت: 180هـ) أساسا لتفسير عدد من الظواهر الصوتية في مقدمتها ظاهرة الإدغام، وعند علماء القراءات وسيلة لوصف ظواهرها الصوتية بالإضافة إلى الانجازات التي حققها المبرد: (ت: 285هـ) في مقتضبه، وابن السراج: (ت: 316هـ) في أصوله وغيرها من المؤلفات القيمة في هذا المجال، وأما صنيع ابن جني (ت: 392هـ) في كتابه: سر صناعة الإعراب، هو زيادة في وضع المصطلح الصوتي بكل أبعاده، إذ يُعتبر كتابه هذا الوحيد الذي أُلّف في الدراسات الصوتية وحدها وفيه وضع تصورا حقيقيا لعلم الأصوات سواء من حيث المفاهيم والنظريات أم من حيث التطبيق (إبراهيم

هندي، 2004، ص 17-18) كل ذلك أدى إلى استقرار النظام الصوتي، وبروزه له الدور الإيجابي في تقدم الدراسات اللغوية عند العرب القدامى وتأثيرها فيما بعد على الدراسات اللغوية حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن.

ومن هنا يمكننا الجزم أنّ علماء العربية التراثيين على اختلافهم من القراء، والنحاة، وعلماء الأصول، والفلسفة، قد مهدوا بين يدي الباحثين المحدثين جادة البحث المنظم في استكناه الصوت اللغوي، وأسهموا إسهاماً حقيقياً في إرساء ركائزه الأولى، مما أتاح لهم فرصة الاستقرار المبكر لحقيقة الأصوات اللغوية، وسهل عليهم خوض الموضوع بكل تفصيلاته المضنية، مما سجل لهم في لغة القرآن أسبقية الكشف العلمي، والتواصل إلى النتائج التي تواضعت عليها اليوم حركة الأصواتيين العالمية، بعد اكتشاف الأجهزة المتطورة التي أكدت صحة المعلومات الهائلة التي ابتكرها العرب في هذا الميدان.

إن المطلع على الرصيد اللساني في التراث العربي يدرك أن الجانب الصوتي قد حظي باهتمام خاص لدى الدارسين الأقدمين ومصطلح علم الأصوات مصطلح عربي أصيل لا شك في هذا لندنيا، وعلة ذلك استعمال الاصطلاح الصوتي بكل دقة عندهم؛ يقول ابن جني (ت:392 هـ) : « ولكن هذا القبيل من هذا العلم ؛ أعني (علم الأصوات) والحروف له تعلق ومشاركة للموسيقي ، لما فيه من صنعة الأصوات والنغم » إن المتمعن في هذا النص يدرك الدور الذي لعبه ابن جني في إرساء تصور حقيقي لعلم الأصوات متكامل العدة والأسباب واضعاً مصطلحها المسمى اليوم (phonemics) لقد أدرك إذن أن علم الأصوات علم قائم بذاته، وإن كانت كلمة علم لا تعني يوم ذاك ما نعنيه اليوم من أسس وقواعد منهجية دقيقة- وكلام ابن جني هذا يبين لنا أن الأصوات بدأ يُنظر إليها في القرن الرابع الهجري على أنها يمكن أن تدرس درساً مستقلاً، كما كانت تدرس علوم اللغة، بالاصطلاح القديم، من

نحو وصرف وبلاغة وغيرها، ويرى الدكتور كمال بشر: أن مصطلح علم الأصوات عند ابن جني على الصورة التي رسمها لهذا العلم جاء سابقاً للمصطلح الأوروبي المقابل له وهو الفونيتيك ليس هذا فحسب بل إن المعايير التي وضعت للنحو العربي الأول كان أساسها صوتياً ولعل قصة أبي الأسود الدؤلي (ت 68هـ) مع كتابه حينما همّ بوضع الشكل والتنقيط للقرآن الكريم من خلال قوله له: إذا رأيتني فتحت ففي فضع نقطة فوق الحرف وإذا كسرت ففي فضع نقطة تحت الحرف، وإذا ضمنت ففي فضع نقطة بين يدي الحرف، إنما يدلّ على أنّ أبا الأسود لاحظ أثر الشفتين في نوعية الصوت الذي يسميه المحدثون بالصائت (Vowel)، فحين سمى الحركات القصيرة فتحة وضمة وكسرة اعتمد على شكل الشفتين ووضعهما عند النطق. وفي هذا إشارة إلى خاصية مهمة من خواص الحركات، ثم إنّ هذا الأساس في التنقيط عضوي فيزيولوجي يعتمد على الدرس الصوتي الحديث، فصنّع أبي الأسود إذن إن كان يهدف إلى المحافظة على لغة القرآن، فهو صنّع متصل بالصوتيات أوثق الصلة، كما أن ما قام به من باب المحافظة على أصوات العربية سليمة.

لكن ما جدوى هذه الدراسة اللسانية؟ وماهي النتائج التي ستبرز من خلالها؟

إن هذه الأسئلة يمكن أن تضيء إلى تحديد تصور المصطلح الصوتي في التراث العربي من جهة وفي الدرس اللساني الحديث من جهة ثانية، وسيجعلنا هذا الطرح نتساءل أيضاً هل أنّ عديد التصورات التي يستخدمها الدرس الحديث في المستوى الصوتي لا تخرج عن تلك التي استعملها تراثنا؟ وسنجدها متطابقة إلى حد غير متوقع. وهذا ما سنؤكد من خلال عرضنا لأهم المصطلحات الصوتية وحالاتها المختلفة، وتصوراتها عند اللغويين التراثيين ومقارنتها بتلك التي يستخدمها الدرس الحديث لنبرز من خلالها أنّ الباحثين المحدثين في مجال الدراسات اللسانية بصفة عامة وفي مجال الأصوات بصفة خاصة قد أهملوا بعض القضايا التي توصل إليها التراثيون ولم يطوروها واشتغلوا بما توصلت إليه

الدراسات الغربية حتى تشتتوا وتفرقوا ولم تتضح رؤيتهم المصطلحية. وهذه ليست دعوة إلى نبذ كل ما هو غربي والتشبث بكل ما هو تراثي حتى وإن كان غير نافع وإنما هي محاولة للفت انتباه الباحثين إلى السعي إلى وضع خطط توحيدية للمصطلح اللساني والصوتي جزء منه تكفل استعمال طرق محددة تلائم اللغات الأجنبية، وتوافق طرق العربية في الأصوات والنحت والسوابق واللواحق والاشتقاق والمجاز مع إيجاد آلية للتنسيق تنطلق مما هو موجود فعلا.

ولعل الإجابة عن هذه التساؤلات تجعلنا نؤكد كذلك على دور التراث اللساني في المساهمة في التأسيس للدرس اللغوي ونثمن الجهود التي قدمها علماءه سواء على مستوى الأفكار أو على مستوى المفاهيم، وإن ما توصل إليه الدرس الحديث ما هو إلا امتداد له. ولكن هذا لا يمنعنا من التجديد والبحث على ما يواكب التطورات الحاصلة في العالم. هذا العالم الذي إذا تأملنا فيه - خاصة الغرب منه-، وجدناه يتكفل من أجل الحفاظ على المكتسبات الثقافية والاقتصادية، وتوحيد الرؤى من أجل السيطرة على الآخرين، والانصهار في بوتقتهم، ونحن لم نتمكن حتى من التنسيق بيننا في كيفية استغلال تراثنا اللغوي واستثماره لنثبت ذاتنا ووجودنا الفكري والعلمي، لذلك ينبغي أن نكون يقظين وأن نعمل من أجل تأصيل المصطلح اللساني بصفة عامة والصوتي بصفة خاصة، وتوحيده وتبيين ما هو عربي وغير عربي، ما هو مترجم بلفظه وما هو مأخوذ بمعناه حتى يتسنى لنا من وضع مصطلح موحد يُتسنى استعماله في نطاق أوسع مما هو عليه الآن، ويستفيد منه طلبتنا الذين أصبحوا تأميين بين تعدد المصطلحات في المراجع العربية المختلفة وبين الأساتذة أنفسهم، وإن الاختلاف يدعو إلى عدم الاستقرار، والتوحيد يدعو حتما إلى الاستمرارية في البحث والوصول إلى نتائج جد مرضية، يقول الدكتور أحمد محمد قدور في كتابه اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي: ((...نجد أن اللسانيات عند

أهلها تشكو تفرعا وشيئا من الاختلاف حول المفاهيم والمصطلحات، مما ينعكس على درسنا فيزيده تشتنا على تشنت)) (أحمد محمد قدور، 2001، ص 14).

إن هذا العمل الذي نصبوا إليه يتطلب منا الدقة والموضوعية معتمدين في ذلك على الوصف والجمع والتصنيف قصدا للتوحيد لأن سوق التداول الصوتي يشكو اكتظاظا وازدحاما رهيبا من كثرة المصطلحات وتداخلها خاصة ما نستعمله الآن في جامعاتنا ، ونبين أن في تراث العربية كثيراً من الإشارات، والمبادئ والأغراس التي تشير إلى أسس علوم لسانية أئنتعت في الأيام الحاضرة. وأنهم لم يكتفوا بالنحو والصرف. ولم يبق لنا سوى تحريك أنفسنا لاستخراجها وتثميرها.

2- المصطلح الصوتي تصوره: في التراث العربي:

يُعد المصطلح الصوتي من أهم الخصائص التي يتميز بها أي علم من العلوم، إضافة إلى ما يحتويه من مبادئ عامة وأصول نظرية. ويمكن أن نعتبر أي دراسة علما، إذا كان لها العدد الكافي من المصطلحات الخاصة التي تحدد مختلف مفاهيمها، والتي تكون بطبيعة الحال تابعة من ماهية المادة المدروسة.

والمصطلح له اتجاهان: اتجاه لفظي: وهو الدال على المعنى اللغوي المتداول في اللغة العامة ، أو هو المعنى الذي وضعت له الكلمة أصلا. واتجاه اصطلاحي: وهو الذي تخرج به الكلمة من معناها اللغوي العام إلى معنى خاص في علم من العلوم، ويسمى في اصطلاح اللغويين "المفهوم" وهذا ما يمكن أن يختلف فيه الدارسون.

كان لـ " مصطلح الصوت " عند العرب حيز كبير من الاهتمام في مجال الدراسات اللغوية، وهذا راجع لارتباطه ارتباطا وثيقا بالقرآن الكريم، وكان في ((القرن الثاني للهجرة، وهو قرن نشأة العلوم وتوطيد المعارف العربية الإسلامية ضمن جو علمي ناهض))(السابق ، ص 63). لذلك كانت

الدراسات الصوتية وسيلة وضرورة لفهم القرآن الكريم لا غاية في حد ذاتها، كما يعود أيضا إلى الطبيعة الصوتية للغة، وأهمية الصوت بالنسبة لها، ولعل هذا ما جعل الصوتيين الأوائل يولونها اهتماما وعناية بالغتين فكانت بذلك المفاتيح الأولى لهذا العلم ويظهر ذلك من خلال العمل الجبار الذي قم به الخليل الذي وضع الأسس الأولى لعلم الأصوات العربية في معجمه العين، ولقد أكد هذه النتيجة المشهود لها إبراهيم السامرائي ومهدي المخزومي محققا مقدمة (العين) في قولهما: ((في هذه المقدمة بواكير معلومات صوتية لم يدركها العلم فيما خلا العربية من اللغات إلا بعد قرون عدّة من عصر الخليل)) (الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، د-ت، ص 10)، وبذلك كان لهذا المعجم مكانة سامية في اللغة العربية باعتباره أول معجم عربي، مُعالج بطريقة علمية دقيقة اهتمت إليها الخليل بفكره الثاقب وموهبته النادرة وعلمه الواسع، اعترف بها الكثير من الدارسين المعاصرين، أضف إليه ابن جني، وسيبويه وابن سينا، اللذين ذهبوا إلى أن اللغة أصوات يعبر بها الناس عن كل ما يتعلق بحياتهم اليومية. كما عرف علماء اللغة وعلماء القراءات الكثير من المصطلحات الصوتية منها ما تداوله هؤلاء العلماء ومنها ما انفرد بذكرها أحدهم، ومنها أيضا مصطلحات أخرى اختصرت على عصره وأكثرها امتدت جذورها إلى الدرس الصوتي الحديث.

إن الدراسة الصوتية -كغيرها من الدراسات- تعاني من مشكلة الاختلاف في المصطلحات بين الدارسين: هناك العديد من الأسماء التي تمت ترجمتها أو تعريبها بأوجه مختلفة في دارستنا الحديثة. ولا ندري هل هذه الاختلافات نتجت عن طريق التراث اللغوي وتعدد المفاهيم أو أنه يعود إلى اتساع المجال المعرفي وما يفرضه على المصطلح من تعدد وجوه الاستعمال، ومهما يكن فإن هذا الاختلاف وهذا الاتساع أدى إلى تضخم الجهاز المصطلحي لعلم الأصوات مما قد يؤدي إلى التشتت يقول الدكتور أحمد محمد قدور: ((فاجتمع الدخيل الذي يُورد بلفظه كما هو، والمعرب الذي يوضع

في قوالب عربية، والعربي الذي أُشرب المعنى الجديد، والشرح الذي يحدد المفهوم عن طريق الجمل بدلا من اعتماد لفظ ما ليشير إلى مصطلح أجنبي واحد. ولقد كان يمكن أن تُتلاق آثار هذه الوسائل المتعددة، لا بل يَحْسُن استغلالها، لو أن الجهات الجماعية أخذت دورها في الاختيار والتوحيد والنشر، ولو أن أصحاب الشأن تخلوا عن نزعتهم الفردية ولزموا أكثر صور المصطلح شيوعا واستعمالا. لكنّ شيئا من ذلك لم يحدث على نطاق واسع، بل حدث ما هو أدهى حين لم يرتض بعضُ المعنيين كل الصور المترادفة للمصطلح الواحد، وراح يبتدع صوراً جديدة يظهرها عصا موسى التي لقيت ما ألقاه السحرة)) (أحمد محمد قدور، مرجع سابق).

إذا كان اللغويون العرب المحدثون قد فُتِنوا بدعوى الموضوعية في الدرس الصوتي الحديث وأشاروا إلى القدامى بالوصفية والنقص العلمي وبدائية الدراسة، و((أصدروا أحكاما ظالمة بالنسبة إلى النحاة واللغويين العرب، واعتبروا أكثر ما تحصل عليه العلماء من المعلومات وما انتهجوه من المناهج العلمية في تحليل اللغة العربية شيئا بدائيا أو على الأقل شيئا لا يمكن أن يقال عنه أنه علم إيجابي)) (عبد الرحمن الحاج صالح، د- ت، ج2، ص 59) فإن المجال الحقيقي لبروز محاولاتهم التجديدية هو وجود وسائل أكثر دقة من تلك التي كان يستعملها العرب الأوائل، وهي رؤية المستشرقين أنفسهم وقد تعثر العديد من الباحثين عن وضع دراسة جامعة لعلم الأصوات اقتداء بأئمة اللغة الأوائل أمثال: الخليل وابن جني، وسيبويه وابن سينا... حيث عمدوا مباشرة إلى عرض المباحث الصوتية وفق رؤى الغرب، باستعمال مصطلحات جديدة وإضافة عناصر صوتية لم يكن يعرفها الأوائل نتيجة نقص الوسائل كما سبق وأن ذكرت (ينظر: شحدة فارح وآخرون، 2003، ص 47-104 وبرجشتراسر، ت: رمضان عبد التواب، - ت ص 11 وما بعدها).

ولو تتبعنا المصطلح الصوتي عند العرب القدماء لوجدناه قد تعددت اتجاهاته وتصوراتها، أولها الاتجاه اللغوي الذي ابتدأه الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت: 175 هـ) في مقدمة كتاب العين، ثم صار هذا الاتجاه منبعاً صافياً اعتمد عليه اللغويون لتفسير وجوه صرفية ذات منشأ صوتي وهو ما شرع فيه إمام النحاة سيويه (ت: 180 هـ) تلميذ الخليل في (الكتاب)، ثم وسعه ابن جني (392 هـ) بعد ذلك في كتبه المتعددة والتي حملت كلها في صفحاتها أبواباً صوتية متناثرة هنا وهناك، ثم كانت أكثر دقة وشمولية في كتابه (سر صناعة الإعراب). أما الاتجاه الثاني فمثله دارسو البلاغة والنقد من بينهم الرماني: (ت: 386 هـ)، والخفاجي: (ت: 466 هـ) وعبد القاهر الجرجاني: (ت: 471 هـ)، والرازي (ت: 606 هـ)، والسكاكي: (ت: 626 هـ)، وغيرهم كثير.

وأما ثالث هذه الاتجاهات وأهمها هو علم التجويد الذي ارتبط بالقراءات القرآنية مما جعل اللغويين يهتمون بالدرس الصوتي المنظم أكثر، وكان ذلك على يد ابن مجاهد (ت: 324 هـ).

وأما الاتجاه الرابع وهو اتجاه يميل إلى العلمية فقد مثله ابن سينا: (ت: 428 هـ) والذي تعرض في دراسته إلى جوانب فيزيائية تتصل بالصوت وجوانب أخرى تتصل بألية إصدار الصوت بعدما قام بتشريح الحنجرة واللسان (غانم قدوري الحمد، 1986، ص 8 وما بعدها).

هذه الأمثلة وهي قليل من كثير ((تكذب هذا الادعاء المجحف وتبين ما كان للأوائل من تصور علمي وأدوات تحليلية لا يضاهاها في القيمة العلمية إلا ما ابتكره العلماء في عصرنا هذا وذلك لا من الناحية اللغوية فقط بل أيضاً من الناحية المنهجية التجريبية منها والنظرية كالإطار النظري المنطقي، والإطار التجريبي الفسيولوجي)) (عبد الرحمن الحاج صالح، مرجع سابق، ص 59).

إن الجهود التراثية المبذولة تحتاج إلى التعظيم ولا ننقص من قيمتها، بل ينبغي احتذاؤها والسير ضمن حدودها وتصوراتها، كما تُعتبر هذه المعطيات خير دليل على شغل التراث العربي جوانب

متعددة من الدرس الصوتي الحديث، ودليل يُرد به على أولئك الذين وقفوا من هذا الإنجاز موقف الزاهد فيه والمنصرف عنه. بل ينبغي أن يكون موقفنا موقف الواسطيين ونحن- أمة وسطية-)) فقد انطلقوا من المحافظة على التراث وبعثه وتوظيفه فيما يلائم حياتنا المعاصرة، واتخذوه معيناً يستقون منه التجارب والمعارف، وسعوا إلى الأخذ بالمنهج الصالحة من الثقافات المعاصرة، كما وقفوا موقفاً صحيحاً يقوم على رفض الادعاء بان العبارة التقليدية أو الصورة القديمة أو الموضوعات لا تصلح لهذا العصر، وبالتالي فهي لا تستحق الحياة. وهكذا نشأ ما يمكن أن يدعى بالاتجاه الوسطي القائم على تفاعل قطبي التراث والمعاصرة)) (أحمد محمد قدور، مرجع سابق، ص 91). وقبل أن نتطرق إلى أهم المصطلحات التي استعملت عند العرب القدماء وتقابلها مع تلك التي استعملها المحدثون، ينبغي أن نتبع المصطلح الصوتي؛ مفهومه وتصوراتاه.

عرف الخليل وسيبويه وابن جني وابن سينا وعلماء القراءات الكثير من المصطلحات الصوتية منها ما تداوله هؤلاء العلماء ومنها ما انفرد بذكرها أحدهم، وأكثرها امتدت جذورها إلى الدرس الصوتي الحديث ومنها أيضاً مصطلحات أخرى اختصرت على عصره، ولعل أهم المصطلحات الصوتية التي ذكرت في مؤلفاتهم يمكن تلخيص أهمها على سبيل التمثيل لا الحصر في النقاط الآتية:

3- أهم المصطلحات الصوتية التراثية ودورها في إرساء الأسس والنظريات:

يعتبر جهاز النطق الوسيلة الأساسية في إصدار الأصوات لذلك تفتن له علماء العربية الأوائل في وقت مبكر محاولين إبراز دوره في تحديد موضع الصوت وخصائصه، وجاء تأليف معجم العين مناسباً لمدرج الجهاز الصوتي انطلاقاً من أقصى الحلق إلى الشفتين، وذلك تبعاً لطريق مخرج الكلام الذي ينطلق من الجوف إلى الخارج، وكان الخليل يتذوق الحروف بفتح فمه ثم ينطق بالألف ساكنة

هذا العلم. وإذا كان الخليل قد ربط بين اللغة والصوت فإن سيبويه أول من ربط بين قضايا الصوت نفسها(ينظر: سيبويه 1982، ج 4، ص ص 431، 436، 435). ثم جاء من بعدهما ابن جني الذي يُعتبر أوّل من أفرد الدرس الصوتي بعلم مستقل أطلق عليه مصطلح علم الأصوات. هذا العلم ما زال يستعمله الباحثون الصوتيون إلى الآن كما زاد له إضافات مهمة ذات قيمة منهجية في الدراسات الصوتية وبعد الأول في هذا المجال إذ نجده الرائد الذي استطاع بإعطائه مفهوما شاملا وكاملا للصوت هذا الأخير الذي اعتد به الدارسون المحدثون والذي يعرف اليوم بالدراسة الفيزيائية والسمعية للأصوات (يُنظر: ابن جني، ج1، ص 19 وما بعدها).

من هنا يمين القول: ((إنّ المنهج الذي اتبعه ابن جني يكشف عن عمق الفكر عنده إذ يعرض فيه عصاره تجاربه الصوتية دقيقة منظمة، ويتفرغ لبحث أصعب المشكلات الصوتية بترتيب حصيلف يتنقل فيه من الأدنى إلى الأعلى، ومن البسيط إلى المركب حتى إذا تكاملت الصورة لديه بدأ بالبحث المركز...فأنت بين يدي مناخ جديد مبوب بأفضل ما يراد من التصنيف والتأليف)) (محمد حسين علي الصغير د-ت، ص 53). وإذا تتبعنا سيرته الصوتية من خلال كتابه: (سر صناعة الإعراب) لوقفنا على النتائج الآتية:

شبه الجهاز النطقي أثناء عملية إنتاج الأصوات بالناي ووتر العود، وهذا التشبيه يجسد فهما دقيقا لمخارج الأصوات، واهتماما بالجانب التطبيقي، العملي كما يستعمله الغربيون تماما في المخابر الحديثة، ويبين الوسائل المساعدة على ذلك. و وقف على كل عضو من الأعضاء المشاركة في العملية الصوتية وأعطاه مصطلحا خاصا يدل عليه. و من جملة المصطلحات التي أوردها فيما يتعلق بهذا الجهاز على سبيل المثال:الصدى، الصدر(يشير به إلى الحنجرة، والوترين الصوتيين)، النفس، الحلق (أدناه، وسطه، وأقصاه)، أول الفم، اللسان.....وغيرها وهي كثيرة.كما حدد صفات الأصوات بواحد

وعشرين صفة نذكر منها: الجهر، الهمس، المنحرف، المترف، المهتوت، وجعلها في قسمين رئيسيين صفات ذات ضد مثل الجهر، الهمس، الشدة، الرخاوة، وصفات لا ضد لها مثل الحرف المنحرف والمهتوت.

كما يعدّ ابن جني أول عالم لغوي فرق بين الصوت والحرف، والصوت (ينظر: ابن جني مرجع سابق ج 1، ص 20، 19) إذ وقف على كل مصطلح منها وبين مفهومها. وقد وقف على الأصوات العربية بحسب مرور الهواء في التجويف النطقي إلى قسمين رئيسيين: الأول وأطلق عليه مصطلح السواكن، والثاني مصطلح الحركات أو أبعاد الحروف. ولم يتطرق ابن جني في دراسته الصوتية على الجانب الفيزيولوجي فقط، بل إلى علاقة الأصوات بعضها بعض، وتجميعها في وحدات صوتية أكبر، وهذا ما يُعرف عند المحدثين بعلم الأصوات الفونولوجي، ((أن بعض مباحث العرب في البحث الصوتي داخلة في (علم الصوت: phonetics) لاشتماله على دراسة التكوين التشريحي لجهاز النطق والصوت ومكوناته وعناصره وصفاته العامة والخاصة على مستوى المجموعة البشرية. كما أن بعض جوانب (علم الصوت الوظيفي: phonology) تبدو جلية في قوانين التأثر والتأثير)) (خليل إبراهيم العطية 1983، ص 108) أهمها المقطع.

ونمت الملاحظات الصوتية عند علماء العربية القدامى بشكل واضح إلى أن أصبحت معالجة في علوم اللغة المختلفة، تسهم في تفسير كثير من مشكلاتها، أدت إلى إعجاب المستشرقين بها، فأشادوا بجهود علماء العربية في هذا الميدان، كما استفاد الغربيون منها، ثم من بعدهم العرب المحدثون وأصلوا عليها فروعاً عديدة مكثهم منها ظهور الوسائل المساعدة والتحليل الصوتي في المختبرات، والتطور التقني الذي شهدته سنوات الستينيات، ((وامتاز العرب ههنا بنظرة خاصة بهم لا توجد مثلها في الصوتيات التي صدرت من علماء الهند قبلهم، وتنحصر فيما يسميه العرب بالحركة

والسكون، وكذلك فهم الفضيلة، فهو شيء لا يوجد مثله حتى في الصوتيات الحديثة)) (عبد الرحمن الحاج صالح، مرجع سابق، ص 61).

ولا نرحب النتائج العلمية الكبيرة التي توصل إليها العرب القدامى والتي تعتبر بحق مصادر يمكن العودة إليها كلما خضنا في مجال من مجالات الدراسات اللغوية بجميع فروعها، حتى نقف عند رسالة ابن سينا التي تعتبر هي الأخرى نموذجا علميا للدراسات الصوتية فهذه الرسالة مرجع علمي لا يستهان به في الدراسات الصوتية استطاع من خلالها ابن سينا الانتقال من العلوم الطبيعية إلى العلوم اللغوية، كشف فيها عن أسرار بعض المصطلحات الصوتية كظاهرة التموج الفيزيائية وكثافة الهواء في كل موجة وشكل الموجة وما يترتب عنه من صوت.

كما كان لعلماء القراءات القرآنية الدور البارز في الدراسة الصوتية خاصة وأن هذه الدراسة ارتبطت بالقرآن الكريم باعتبار أن الصوت يشكل المادة الأولى لأي لغة، فكانت دراساتهم المدققة أن أوصلتهم إلى نتائج سبقوا بها عصرهم مئات السنين، ((انظر إلى جهودهم في دراسة الحركات في صورة ما يعرف بالمد الفرعي وكيف أنهم أوجدوا لأنفسهم قياسا زمنيا يقيسون به طول الحركة فكانوا أكثر توفيقا أدق نتائج مما توصل إليه اللغويون)). (إبراهيم هندي، مرجع سابق، ص 18).

4- المصطلح الصوتي في الدرس العربي الحديث:

وما ننتهي إليه من خلال هذه الدراسة هو أن النتائج التي توصل إليها العرب في صدر الإسلام وبعده في مجال الدراسات الصوتية وغيرها يقرب أن يكون المبادئ التي يركز عليها الدرس المعاصر من حيث الجانب النظري والتطبيقي. فعند تتبعنا للدراسة الصوتية عند العرب المعاصرين وجدناها لا تختلف في مضمونها عن تلك التي توصل إليها الصوتيون التراثيون، بل نكاد نجزم على أنها هي هي، إلا ما لمسته من الاختلاف في الشكل والأسلوب، والإيضاح والبيان، بإضافة بعض العناصر المساعدة في

تشكيل الصوت وإنتاجه، وقد ساعدتهم في ذلك ظهور الوسائل العلمية الحديثة التي ابتكرها الغربيون والتي لم تكن متوفرة لدى القدامى. وقد أكد العالم (كاردينر) هذه المسألة حيث رأى أن علماء العربية الأوائل سبقوا الصوتيين المحدثين في تصنيف الأصوات، فهذه إشارة ضمنية على حنكة وسبق علماء التراث إلى مثل هذه الدراسات وغيرها من مجالات اللغة (ينظر: محمد علي الصغير، مرجع سابق، ص 17). ولعل من بين العلماء العرب المعاصرين الذين بذلوا جهودا معتبرة في المجال الصوتي وعلى سبيل التمثيل لا الحصر، إبراهيم أنيس، رمضان عبد التواب، كمال بشر، أحمد مختار عمر، عبد الرحمن الحاج صالح، وغيرهم.

عند تصفحنا لكتهم التي تناولت علم الأصوات توصلنا إلى النتائج الآتية:

أن الدرس الصوتي الحديث لم يضيف شيئا ما عدا بعض المصطلحات الخاصة بجهاز النطق كالإشارة إلى بعض النقاط المتعلقة بتسمية وطرق عمله. كما أشار إلى بعض العناصر الجديدة في الجهاز الصوتي (كمال بشر، د-ت، ص ص 131، 132) وهي لا تختلف عما توصل إليه القدماء، من بينها: الشفاه- الأسنان-أصول الأسنان(ومقدم الحنك)-الحنك الصلب(وسط الحنك) - الحنك اللين (أقصى الحنك) - اللهاة - طرف اللسان - مقدم اللسان (وسط اللسان)-مؤخر اللسان-الحلق-لسان المزمار-موقع الأوتار الصوتية- ذلق اللسان (نهايته)-منطقة الحنجرة(من الأمام)-القصبة الهوائية.

كما أعطوا تعريفا أكثر شمولية لمصطلح الصوت اللغوي واستخلصوا من خلاله عدة جوانب منها ما يتعلق بالجانب الفونيتيكي ومنها ما يتعلق بالجانب الأكوستيكي ومنها ما يتعلق بالجانب الفونولوجي. والعلاقة الموجودة بين هذه المصطلحات سواء من الناحية النظرية أو التطبيقية. كما تناولوا الأصوات من حيث الجهر والهمس، والأصوات الاحتكاكية لاحتكاك الهواء عند النطق بها بأجزاء المدرج، و الأصوات المركبة، وقد سمو كذلك لأنها تجمع بين الوقفة والاحتكاك. والصوامت

والصوائت، والمماثلة، والمخالفة، والنبر والتنغيم وغيرها مما يتعلق بالصوت و كيفية حدوثه وآلته المنتجة له، والتي لا يمكن حصرها في هذا المقال القصير، ولكن يمكن الإطلاع عليها من خلال كتبهم وندواتهم ومقالاتهم وبحوثهم المختلفة.

لقد بينت لنا هذه العجالة في الدرس الصوتي بين التراث والدرس المعاصر ما قدمه العرب والمسلمون الأوائل من دراسات تفصيلية تعد أكثر علمية ودقة في المفاهيم والتصورات، تشير إلى عقول نيرة خصصت وقتها للبحث العلمي خاصة عندما تطلب الأمر ذلك، متخذين قوله تعالى: ﴿ أَقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾- العلق- الآيات 1، 2، 3، 4- نبراسا ينير لهم طريق العلم والمعرفة، فكانوا أن شكلوا كما هائلا من المصطلحات، والنظريات اللغوية بصفة عامة والصوتية بصفة خاصة.

هذا الجهد المتميز واكبه اللغويون المعاصرون وتأثروا به أيما تأثر في منهجه وتحليله، وطرق معالجته للمسائل الدقيقة رغم افتقارهم للوسائل المتاحة حاليا. وما نقرأه اليوم في كتب الباحثين المعاصرين خير دليل على ما ذهبنا إليه من وجهات نظر تؤكد دور العرب القدامى في تعبيد طريق الدراسات الصوتية والصرفية والنحوية، والدلالية.

5- اضطراب بعض المصطلحات الصوتية في الدراسات العربية الحديثة:

شهدت الدراسات اللغوية في العصر الحديث تطورا مثيرا، مع بدايات ظهور اللسانيات الحديثة فتزاحمت المصطلحات وتشتعت وعانت من مشكلة الاختلاف، والدراسة الصوتية -كغيرها من العلوم- عرفت هذا الاضطراب بين الدارسين: فهناك العديد من الأسماء التي وضعت لها، سواء في الدرس اللغوي الأجنبي، أو عندنا في دارستنا الحديثة، ابتداء من تحديد المصطلح الذي يعين بدقة معنى: الدرس الصوتي للغة. وشاع هذا الاختلاف عند الباحثين العرب، بين من ((يلجأ إلى التعبير عن

المصطلح بجمله أو أكثر بدل أن يضع له كلمة واحدة أو تركيبا إضافيا أو وصفا أو نحو ذلك)) وبين من يرى ((الإبقاء على وجود المصطلح الأجنبي أساسا وترسيخه بدل الاستغناء عنه باللفظ العربي أو المعرب)) (أحمد محمد قدور، مرجع سابق، ص 31).

عند استقرائي للمصطلحات التي وردت في كتب الدارسين المحدثين خلصت إلى اضطرابات المصطلحية الآتية:

1 - الفونيتيك : هو العلم الذي يدرس أصوات اللغة وهي معزولة بعيدة عن البنية اللغوية. أو يبحث في العمليات النطقية. قد ترجم هذا المصطلح إلى: علم الأصوات العام، علم الأصوات النطقي، علم تشريح جهاز النطق ، علم الصوت، منهج الأصوات، وعلم الأصوات، وعلم الأصوات اللغوية، والصوتيات، والصوتية . كما أبقوه دخيلا: الفونيتيك على المعنى الفرنسي، وفونتيكس على المعنى الإنجليزي. وفي حالات أخرى يطلقون عليه تسمية علم الأصوات الفسيولوجي.

2- جهاز النطق: آلة النطق، ناتج الأصوات.

3- أكسوتيك: هو العلم الذي يدرس فيزيائية الصوت عند انتقاله من المتكلم واستقباله من طرف المتلقي. قد ترجم إلى: علم الأصوات السمعي، علم الأصوات الفيزيائي.

4- الفونولوجي: وهو العلم الذي يدرس أصوات اللغة عندما تتركب في كلمات تعبر عن المعاني: أي عندما تقوم بوظيفتها فتدرس ضوابط هذا التركيب، وما يسوغ منها وما لا يسوغ، والتغيرات التي قد تعترى الصوت اللغوي في مخرجه أو صفته في مختلف حالات تركيبه، والقيمة الوظيفية له في شتى الأوضاع التركيبية. وقد ترجم هذا المصطلح حسب قول الدكتور عصام نور الدين في كتابه علم وظائف الأصوات اللغوية (الفونولوجيا): و((قد ارتضينا ترجمة هذا المصطلح إلى -علم وظائف الأصوات اللغوية- مقرونا بتعريبه إلى فونولوجيا لأن علماء العربية المحدثين لم يتفقوا على ترجمة

موحدة له، بل نراهم قد ترجموه إلى:-علم وظائف الأصوات-وهذه ترجمة المرجوم الدكتور:محمد أبو الفرج، وقد تكون هذه الترجمة أكثر توفيقاً من بقية الترجمات، لأنها قاربت تعريف –الفونولوجيا-وقد أخذنا بها مقرونة بالمصطلح معرباً..ومنها:-علم التشكيل الصوتي-، وترجمة الدكتور:تمام حسان،-علم الأصوات التشكيلي-علم الأصوات التنظيمي-و ترجمة الدكتور:كمال بشر،-علم الصوتية-علم الصوتية-علم التصويتية-علم الصوتية-علم الفونيمات، أو الفونيميك-علم الأصوات-علم الأصوات اللغوية الوظيفي-وترجمة الدكتور:محمود السعران-علم الأصوات التاريخي-علم النطقيات-ويرى الباحث أن علماءنا لم يتفقوا على ترجمة واحدة للمصطلح الأجنبي الواحد، والذي قد لا يكون موضع اتفاق حتى عند أصحابه الغربيين. لذلك جاءت الترجمات المختلفة انعكاساً للمناهل المختلفة التي نهل منها لغويونا ، وانعكاساً للمناهج المختلفة التي تحكم تلك المناهل))((عصام نور الدين 1992، ص 25،26).

5- الصوائت والصوامت: ترجمة للمصطلحين الغربيين: vowels و consonants والتي تقابل المصطلح العربي:الصحاح والعلل.كما يطلق عليها حروف اللين للأولى والحروف للثانية. يرى بعض العلماء المحدثين أن الاصطلاح العربي أفضل من الترجمة إلى (صوامت وصوائت) ، في حين يؤثر آخرون الترجمة على المصطلح العربي.

6- الصوائت القصيرة والصوائت الطويلة: يقابلها مصطلح الحركات الطويلة(ا،و،ي) والحركات القصيرة(الفتحة والضمة والكسرة). وقد أطلق العرب على الصامت اسم الساكن والصحيح، وعلى الصائت أسماء حروف المد أو حرف العلة أو حرف اللين، ولكن منهم من جرى على استعمال المصطلحين صائت ومصوت في الدلالة على الحركات، فابن جني مثلاً سعى حروف المد – وهي حركات طويلة – بالحروف المصوتة، إلى جانب تسميتها بحروف المد واللين فقال: (الحروف الممتولة هي

الحروف الثلاثة اللينة المصوتة، وهي الألف والياء والواو. اعلم أن هذه الحروف أين وقعت، وكيف وجدت، بعد أن تكون سواكن يتبعهن بعضهن غير مدغمات، ففيها امتداد ولين ونحو قام وسيربه وحوث وكوز وكتاب وسعيد وعجوز).

7- الفونيم: يدرس الوحدات الصوتية الأساسية، ويقوم بتحديد وحداتها الثانوية وتوزيعها في الكلمة. وقد ترجم هذا المصطلح إلى اللغة العربية بألفاظ: صوت، صوتم، صوتيم، متوصت، صوت مجرد، لافظ، صوتية، وعرب إلى فونيم وفونيمية. وهو مصطلح يقابل الحرف عند العرب التراثيين.

8- الألوفون: يطلق على التنوعات المختلفة لنطق صوت واحد، ولا تؤدي إلى اختلاف المعنى. وقد ترجم إلى: صوتم تعاملي، صوتي، وعربوه إلى: ألوفون، وألوفون متغير.

9- الشديدة والرخوة: فالشدة مصطلح صوتي يطلق على الصوت القوي ينحبس الهواء عند مخرجه أما الرخوة فتعني جريان صوت الحرف جريانا تاما، يقابلها عند المحدثين الانفجارية والاحتكاكية.

خاتمة:

من خلال هذه الورقة البحثية نتوصل إلى النتائج الآتية:

- أن مجيء الإسلام أثر في تأخير البحث الصوتي عند العرب ، لتوجيه جهودهم العلمية أولا إلى العلوم الشرعية والإسلامية، وحين أنها منها تفرغوا إلى العلوم الأخرى. فكانت دراساتهم سجلا حافلا بالمعارف المختلفة. ورغم هذا التأخير نجد أن تأثير القرآن الكريم في دفع الدراسات الصوتية إلى البروز والانتشار كان قويا ومفيدا.

- لا يمكن أن يجادل أحد، أو يُنكر ناكراً في أهمية الدراسات الصوتية عند العرب الأوائل وتأثيرها في الدراسات الصوتية الحديثة عربيها وغربيها، سواء تلك التي انتقلت إلينا عن طريق الرواية والمشافهة، أو عن طريق الكتابة.
- تأثر درسنا الصوتي الحديث بالدرس الصوتي الغربي وابتعاده عمّا قدّمه التراثيون من مجهودات في هذا المجال بحجة تقصيره وعدم علميته.
- لقد بينت لنا هذه الورقة البحثية في الدرس الصوتي بين التراث والدرس المعاصر ما قدّمه العرب والمسلمون الأوائل من دراسات تفصيلية تعد أكثر علمية ودقة في المفاهيم والتصورات، تشير إلى عقول نيرة خصصت وقتها للبحث العلمي.

قائمة المراجع:

- 1- إبراهيم هندي، دراسات لغوية، كلية الآداب جامعة عين شمس، 2004، القاهرة.
- 2- أحمد محمد قدور، اللسانيات وأفاق الدرس اللغوي، ط1، دار الفكر المعاصر بيروت، دار الفكر، 2001، دمشق.
- 3- برجشتراسر، التطور النحوي للغة العربية، ت: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، ط4، القاهرة.
- 4- ابن جني أبو الفتح عثمان، سر صناعة الإعراب، ت: حسن هندراوي، د-ط.
- 5- خليل إبراهيم العطية، في البحث الصوتي عند العرب، سلسلة الموسوعة، دار الجاحظ، 1983، بغداد.

- 6- الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تحقيق:مهدي المخزومي وإبراهيم السمرائي،سلسلة المعاجم والفهارس، ج.1.
- 7- سيويه، أبو بشر عمرو بن عثمان ، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي ، ط.1982، القاهرة.
- 8- شحدة فارح وآخرون، مقدمة في اللغويات المعاصرة، دار وائل للنشر والتوزيع، ط: 2، 2003، الأردن.
- 9- عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الرغاية الجزائر.
- 10- عبد الصبور شاهين، أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي، مكتبة الخانجي، ط: 1، 1987، القاهرة.
- 11- عبد المنعم عبد الله محمد، المقطع الصوتي في ضوء تراثنا اللغوي. مطبعة الجبلاوي، ط: 1، 1988، القاهرة، مصر.
- 12- عصام نور الدين، علم وظائف الأصوات اللغوية(الفونولوجيا) ،دار الفكر اللبناني، ط: 1، 1992، بيروت.
- 13- غانم قدوري الحمد ، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ،وزارة الأوقاف ،1986، بغداد.
- 14- فردينان دي سوسير ، علم اللغة العام، ترجمة:يوسف عزيز، آفاق عربية، 1985، بغداد.
- 15- كمال بشر:علم الأصوات، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط..
- 16- محمد حسين علي الصغير الصوت اللغوي في القرآن الكريم، دار المؤرخ العربي، بيروت لبنان.